

الفصل الثالث:

الجذور التاريخية للفصل بين العلماء والحكام

(1) مقدمة

الحقيقة التي يعيها المسلمون في كافة أمصار الأرض هي أن الأمة الإسلامية حاليا ذات قيم مفقودة ومنهجية غير فعالة، وبالتالي أمة قد أصبحت وظلت دهرا طويلا خارج ساحات يُصنع التاريخ فيها. ويلزم إدراك هذه الحقيقة الوعي الدائم من ضرورة القيام بتحليل الأزمة والإتيان بالحلول، مع أن تلك المحاولات وإن كانت موجودة لم تنفك عن المنهجية التقليدية التي تحبظ المسلمون في إطارها وهم يواجهون تحديات تطور الحياة الاجتماعية المتجددة. وعلى هذا لا يوجد في معظم تلك المحاولات الإصلاحية تحليل منهجي، أي ليس هناك دراسة ميدانية مرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لا تدع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون. ولقد ترتب على ذلك أن كل مصلح أو مجدد وصف أوضاع المسلمين أو أزمتهم تبعا لرأيه أو مهنته، فرأى بعض الرجال السياسيين كجمال الدين الأفغاني¹ (ت1315هـ/1897م) أن المشكلة ذات طابع سياسي تُحلّ بوسائل سياسية والوسائل الأخرى لها أهمية ثانوية، بينما نرى بعض الرجال الدينيين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تُحلّ إلا بإصلاح العقيدة وإصلاح تعامل الناس بالدين والشريعة بصفة عامة. إن كلّ الجهود والإسهامات من هذا النوع لا تتناول في الحقيقة المرض بل تتحدث عن أعراضه عمّا نتج عنهم منذ خمسين عاما لا يعالجون أمراض الأمة الإسلامية الحقيقية والأسباب التي أدّت إلى وجود الأمراض معالجة قاطعة، وإنما يعالجون الأعراض أو يريدون فقط أن يخففوا آثار نتائج تلك الأمراض السلبية على المسلمين. وقد

¹ المفكر والفيلسوف الإسلامي في عصره، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على مساهماتهم نهضة الإسلام الحاضرة. (الأعلام ج6

كانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل الجرثومي فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بميجان الحمى عند المريض.²

وفي عملية التحري عن جذور أزمتنا وعناصرها الرئيسية نبدأ بطبيعة الحال بعهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين بحيث سنبنى قاعدة معنوية نستطيع أن نطلق منها إلى دراسة المراحل التالية من التاريخ الإسلامي، كما يسهل لنا، بناء على تلك القاعدة، الحكم الصحيح على بعض الظواهر الاجتماعية المترتبة على ظهور وانحلاء تلك الجذور. ولذا أنا سأهجم المنهج ذاته في البحث عن الجذور التاريخية لمعرفة بداية الفصل بين العلماء والحكام.

(2) النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والدولة الإسلامية

بداية، نعتقد أن مقصد النبوة وغايتها وهدفها ليس في الواقع سوى نفي العبودية لغير الله تعالى والوقوف في وجهها، بل إعلان الحرب عليها وعلى كل ما له علاقة بها، ثم إخضاعها تماماً لله تعالى وشريعته، بما هي تعبير عن مبدأ القوة والنفوذ والسلطة المادية، واستبدالها بسلطة قائمة على فكرة القرابة الروحية المتجسدة في المساواة والأخوة في الله. لذلك نرى الرسالة الإسلامية تركز على مفاهيم الجماعة والأمة والأخوة وحرية الإنسان من كل أنواع العبودية المزيفة، إذ لا عبودية إلا لله تعالى. قال الله تعالى: {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون}³ و{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}⁴ و{واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها...}⁵ و{فبما رحمة من الله

² مالك بن نبي: شروط النهضة ص 41، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 1979م.

³ سورة الأنبياء 92.

⁴ سورة الأنبياء 107.

⁵ سورة آل عمران 103.

لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم
وشاورهم في الأمر...⁶

فالذي يستعرض تاريخ رسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يتبين له أنه
سعى قبل كل شيء نحو تكوين الأفراد المتعاونين والمتضامنين، أي نشأة الإطار الضروري
لخلق التواصل والتداول المعنوي والمادي، وبالتالي لتأسيس النماذج حيث ستصنع الحضارة
الإسلامية وثقافتها عبر القرون القادمة.

وعلى الرغم من كل الصعوبات والعقبات في سبيل رسالة نبينا محمد صلى الله تعالى
عليه وسلم منذ أول يوم قد تحقق المجتمع الإسلامي النموذجي عمليا في فجر الإسلام.⁷
وكان هذا المجتمع يشكل وحدة ذات إرادة وأهداف مشتركة، وكان يستند على بناء
الذاتية الإنسانية الفردية الحرة، وإيجاد مبدأ لتضامن روحي للأفراد ومفهوم الأخلاقية
كمحرر للاجتماع الإنساني.

لقد حدد الإسلام المبادئ العامة والوصايا الكلية وأوجب على المسلمين السعي إلى إقامة
حياتهم الشخصية والاجتماعية على وفق تلك المبادئ، كما علمهم المبادئ التي تتجاوز
مسألة تكوين الدول ذاتها وتشديد السلطانات، وهي مبادئ الحياة الجماعية والعمل الجماعي
والتعاون المادي والتضامن الروحي، وهي التي سوف تمكنهم تلقائيا من تشييد الدولة
وراثته الأرض، أي بناء الحضارة. ولذلك انتشرت في أنحاء العالم الكثيرة كلمات الله تعالى
بسرعة هائلة وأخضعت لقوتها وقوة أصحابها الدول والملوك معا.⁸ قال الله تعالى: ﴿يا أيها
الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله
أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾⁹

⁶ سورة آل عمران 159.

⁷ الدكتور توفيق الشاوي: فقه الشورى والاستشارة ص 421، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى 1992م.

⁸ نقد السياسة الدولة والدين ص 55.

⁹ سورة الحجرات 13.

ولعل من أفضل الأمثلة لما ذكرناه، قيام دولة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة والأسس التي قامت عليها. إذ لم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر إلى المدينة أن أصبح رئيساً لأحزاب غير متجانسة، فعمد إلى توحيدها بأن ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المواخاة، ثم اتخذ مسجداً لصلاة المسلمين وللإلتحاق بصحابه وأتباعه باعتباره مركزاً دينياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً للمدينة. وشرع بعد ذلك في وضع نظام للحياة الاجتماعية في المجتمع المدني والذي سيكون دعامة للوحدة بين سكانه، فوضع الصحيفة¹⁰ التي تعتبر بحق دستور دولة في المدينة. وقد تضمنت الصحيفة تنظيمًا للحياة الاجتماعية في المدينة وتحديدًا للعلاقات بين أهل المدينة واليهود فيها. والصحيفة على هذا النحو وثيقة هامة لأنها تصور لنا ما كانت عليه أحوال المجتمع المدني وإلى أي حد تغيرت نظمه القديمة والأسس التي قام عليها قانون تنظيم الحياة الاجتماعية في المدينة.

وأخيراً شرع نظام الجهاد¹¹ عندما وقف المكيون من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موقفاً مضاداً بسبب هجرته إلى المدينة وتخليه لهم، وكان لتشريع الجهاد أثر كبير على المسلمين، إذ منحهم صفة سياسية لم تكن لديهم من قبل.¹²

¹⁰ قبل وقعة بدر وقبل أن ينصرم العام الأول من الهجرة كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه يهود المدينة وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم. وعرف الكتاب بالصحيفة. ومن أهم الأمور التي نستخرجها من الصحيفة:

(1) جعلت الصحيفة للمهاجرين والأنصار ومن تبعهم أمة واحدة من دون الناس.

(2) تجاهلت الصحيفة نظام القبيلة الذي كان يفتت وحدة العرب.

(3) نظمت الصحيفة حق الأخذ بالثأر على نحو يوجب قيام حرب داخلية. فإذا اعتدى شخص ما على مؤمن بالقتل وحسب على أقرباء الجاني أن يسلموا القاتل لولي القتل ليتم العدل.

(4) تركت الصحيفة لله ولرسوله أمر فض أي نزاع أو اشتجار بخلاف فساد.

(5) تركزت الصحيفة على تضامن المسلمين ومحاسنهم أمام خطر ما حارجه يهدد سلامة الدولة.

(6) وأوضحت الصحيفة موقف المسلمين من يهود المدينة.

أنظر نص الصحيفة في البداية والنهاية ج3 ص222-224، وأبو محمد عبد الملك ابن هشام: السيرة النبوية ج2 ص147-150، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1936م، وأبو الفداء ابن كثير: الفصول في سيرة الرسول ص119، تحقيق محمد العيد الخطراوي وعبي الدين مستور، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الرابعة، 1985م.

¹¹ الجهاد مصدر لفعل رباعي هو "حاهد" ومصدر لتلائي الكلمة هو "الجهد" ومعناه الطاقة، و"الجهد" ومعناه المشقة، وقيل للمبالغة والغاية. وهو استفرغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. (أنظر لسان العرب ج3 ص135) والجهاد الإسلامي هو التفتان في خدمة الدين لنشر الدعوة وإعلاء كلمة الله، وقد يكون الجهاد بالنفس والمال والسلاح وقد يكون بالحوار والمناقشة والإقناع. (أنظر أحمد بن

كانت سياسة النبي صلى الله عليه وسلم مستمدة من تعليمات الوحي عامة ومن مبدئي التوحيد والمساواة بين الناس خاصة، ولم يعرف التفرقة بين السيد والمسود، والحر والعبد، والقوي والضعيف، والغني والفقير. فكان الناس في عينيه سواء كأسنان المشط، لا يمتاز بعضهم عن بعض ولا يستعلي بعضهم على بعض. إن هذا المنهج كان بلا شك منهجا جديدا يحمل في طياته احترام الإنسان والاعتراف بإنسانيته ومكانته وعقله.

وأعتبر من أهم وأبرز مظاهر هذا المنهج تفريق النبي صلى الله عليه وسلم بين ما هو تبليغ للرسالة وما هو ليس من باب تبليغها، مما فتح آفاقا جديدة للعقل الإنساني لتدبير مستقبله الحضاري.¹³ فالأمور التبليغية هي ثابتة، وبالتالي لا يجوز تدخل اجتهادات الإنسان في مجالها، وهي دائمة لا تتغير ولا تتبدل بتغير الأزمنة والأمكنة. أما الأمور الدنيوية البحتة فقد تعامل معها النبي مثل غيره من صحابته، إن تعلق شيء منها بحياته الشخصية فقد مارس عقله واجتهاده ليصل إلى حل مناسب. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء

محمد بن علي الشوكاني: السموط الذهبية ص314، تحقيق إبراهيم بامس عبد الحميد وإسماعيل بن علي الأكوخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي: بداية الاجتهاد ونهاية المقتصد ج1 ص441، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية، 1983م، والدكتور إبراهيم حسين العسل: الجهاد الإسلامي ص21، دار بيروت الخروسة، بيروت، الطبعة الثانية، 1995م، وظاهر القاضي: الجهاد والحقوق الدولية العامة ص13، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م) قال الله تعالى في القرآن العظيم: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرون الله من ينصروه، إن الله لقوي عزيز" (سورة الحج 39-40)

"وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واحمل لنا من لدنك وليا واحمل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفا" (سورة النساء 75-76)

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلواهم حيث تفتقروهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسح الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" (سورة البقرة 190-193)

¹² الدكتور سيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ص 75 ، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 1988م.

¹³ عن التفاصيل لهذا النوع من التقسيم للسنة النبوية الشريفة أنظر حجة الله البالغة ج1 ص128 و 129 .

من رأيي فإنما أنا بشر". وقوله في قصة تأبير النخل: "... فإني إنما ظننت ظنا ولا تأخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيء فخذوا به فإني لم أكذب على الله تعالى".¹⁴

وإن تعلق شيء منها بسياسة المجتمع الإسلامي، مما لم يكن من باب التشريع، فإن النبي لم يستقل برأيه الخاص بل كان يستشير أصحابه في التوصل إلى حلول سليمة ومناسبة في ظروف معينة.¹⁵ وأصبحت الشورى جزءا جوهريا من طريقة الإسلام السياسية في حياة المسلمين، مما يتيح لهم في كل العصور أن يقيموا حياتهم الدستورية على أروع الأسس وأمتن القواعد وأشرف المبادئ.¹⁶

وسأكتفي هنا بسرده مثال من غزوتي بدر¹⁷ سنة 2هـ/623م والخندق سنة 5هـ/626م حيث ستوضح لنا حقيقة استشارة النبي لأصحابه ومدى تمييزه بين الشؤون الدينية الخالصة والشؤون الدنيوية المحضة، أي التمييز بين المبادئ العامة التي لا بد من تعيينها والأمور الفرعية التي تستنبط أحكامها من تلك المبادئ والتي تبنى إنجازات الإنسان الحضارية عليها.

ففي غزوة بدر، بعد أن عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم بجيش المسلمين، سألهم المسلمون بلسان الحباب بن المنذر¹⁸ (ت20هـ/640م) عن طبيعة قراره هذا، هل هو دين أم هو سياسة ورأي؟

¹⁴ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، رقم الحديث 4356.

¹⁵ بروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما رأيت أحدا أكثر استشارة للرجال من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم". (أنظر عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النحدي: شرح أصول الأحكام ج4 ص498، دون مكان الطبعة، الطبعة الثانية، 1406هـ، وأنظر أيضا محمد بن منصور ابن الحداد: الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ص123، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، وعلي بن محمد الماوردي: تسهيل النظر في تعجيل الظفر ص99، تحقيق يحيى هلال السمرحان، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م)

¹⁶ عز الدين التميمي: الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص66، دار البشير، 1985م.

¹⁷ اسم موضع بين مكة والمدنية على ثمانية وعشرين فرسخا بالمدنية وبعد ليلة من مكة. فيه ماء مشهور. (أنظر الشيخ محمد حسين

الشيخ سليمان الأعلمي: دائرة المعارف ج13 ص79، مطبعة قم، الطبعة الأولى، 1965م)

¹⁸ لقيه "دو الرأي". (أنظر بسام عبد الوهاب الجاني: معجم الأعلام ص185، الجفان والجاني للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1987م)

سأله الحباب: "يا رسول الله أرأيت هذا المتزل مثل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟"

فقال صلى الله عليه وسلم: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة".

فقال الحباب: "يا رسول الله إن هذا ليس بمترل! فاهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم، ونغور ما ورائه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملوه ماء ونشرب ولا يشربون.

فاستحسن الرسول رأي الحباب وفعله.¹⁹

وفي غزوة الخندق، عندما أشدت الأمر على المسلمين في المدينة المحاصرة، وسعى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عقد معاهدة مع قادة "غطفان" وأهل نجد²⁰، يتخلون بموجبها عن حلفهم مع قريش ويفككون حصارهم للمدينة، لقاء حصولهم على ثلث ثمار المدينة... وبعد أن تمت المفاوضات وأعد مشروع المعاهدة وقبل إمضائه استشار الرسول قائدي الأنصار: سعد بن معاذ (ت5هـ/626م)، وسعد بن عباد (ت14هـ/635م)، فدار بينهما هذا الحوار الذي بدأه سعد بن معاذ: "يا رسول الله أهدأ أمر تحبه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟"

"بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا لأنني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة".

"يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأصنام... وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا بشرأ أو قرى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم!"

¹⁹ البداية والنهاية ج3 ص266-267.

²⁰ "نجد" اسم للأرض التي علاها هامة واليمن وأسفلها العراق والشام، وحد نجد سافل الحجاز. (دائرة المعارف ج29 ص39)

فتزل الرسول مسرورا على رأي أصحابه وعدل عن الرأي الذي كان قد إرتآه، وقال
لقادة غطفان: انصرفوا فليس لكم عندنا إلا السيف، ومحى الصحيفة (مشروع
المعاهدة).²¹

وبانتصار الإسلام دخلت الإنسانية في عصر حديد، لقد تمت دعوة الإيمان وبناء الجماعة
الإنسانية بما هي جماعة إيمان واعتقاد، وانهار مفهوم العبودية للدولة أو للسلطة أو للفرد،
وولد الإنسان حرا من أي قيد، أي ولد العقل المتمكن من مواجهة تحديات الحياة، وبناء
مشروع الحضارة الجديدة استنادا على قدرات ثورة الإسلام هذه.

فكان المسلمون الأوائل يعيشون في رحاب الوحي الإلهي ورحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم، ولم يكونوا يفكرون كثيرا أنهم ذات يوم سيفقدون نبيهم وأن العلاقات
المباشرة مع السماء ستنتقطع. ولقد بدا ذلك على إثر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إذ ما
استطاع بعض أصحابه قبول الخبر عن وفاته، ولم يكن سهلا فهم أي بكر عندما قال من
كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات.²²

3) أبو بكر والدولة الإسلامية

إن النبي صلى الله عليه وسلم سلح أصحابه أثناء حياته بسلاح الإيمان وأعدهم كل
الإعداد لقيادة حركة التقدم الإسلامي، أي عملية التبشير والهداية، وما يرتبط بها من جهاد
وكفاح ضد الشرك والظلم والجاهليات، ولذلك بعد وفاته طرحت مشكلة الخلافة وملء
الفراغ الذي نشأ بغيابه. وقد فهم أصحابه رضي الله عنهم أن حالة الدين بدون النبي
حالة مقبولة ومعقولة بينما حالة الأمة بدون زعيم حالة مرفوضة تماما وهي وضع يؤدي

²¹ البداية والنهاية ج 4 ص 106.

²² نفس المرجع ج 5 ص 212.

إلى الهلاك الأبدي. وعليه، أسرع المسلمون إلى اختيار من سيتولى منصب قيادة الأمة الإسلامية على ذات المسلك الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلكه.

وتمت بيعة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو واع غاية الوعي بالمسئولية التي كلف بها، ولذا نراه يرفض لقب "خليفة الله" ويلقب بلقب "خليفة رسول الله" لأنه يخلف النبي في أمته²³ وينتهج نهجه ويسير مساره دون تعديل وتغيير. ولعل الماوردي كان الأكثر دقة في تحديد المفهوم الإسلامي لهذه الوظيفة بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدتها لمن يقوم في الأمة واجب بالإجماع".²⁴

وقد أعلن أبو بكر سياسته في الخطبة التي خطبها بالمسجد في اليوم التالي لاجتماع السقيفة بعد أن بايعه المسلمون بيعة عامة، إذ قال: "أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقوامك عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه... لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل..."²⁵

ويتضح لنا من هذه الخطبة أن سياسة أبي بكر قامت على الحكم الموسوم بالتواضع، والمتخذ من القرآن الكريم دستورا يترسمه وينتهجه، وعلى المشورة والنصح للخليفة، وعلى تحقيق العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، وعلى الدعوة إلى الجهاد لحماية العقيدة، وعلى الحكم الذي يستمد أصوله وأحكامه من الشريعة، وفي ذلك اعتراف بإعطاء الأمة حقها الدستوري من المراقبة والإشراف.²⁶

²³ المقدمة ص191.

²⁴ علي بن عماد الماوردي: الأحكام السلطانية ص 3.

²⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص223.

²⁶ أنظر الدكتور محمد صادق عفيفي: المجمع الإسلامي وأصول الحكم ص232، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1980م.

لقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم والحكم الإسلامي يقتصر على المدينة ومكة. أما في عهد أبي بكر فقد بدأت المدينة تمثل دور عاصمة الدولة الإسلامية وبدأت المشاكل السياسية والاجتماعية التي كان يحجبها وجود الرسول صلى الله عليه وسلم تظهر وتتمو في عهده.²⁷ وعلى الرغم من ثقل المهمة التي تحمل تبعاتها فقد آلى على نفسه ألا يتساهل في أمور الدين وأمر المجتمع الإسلامي، ولا ينحرف خطوة واحدة عن السياسة التي كان يمارسها النبي صلى الله عليه وسلم مهما كلفه ذلك من تضحيات.

وكانت ردة القبائل²⁸ أول صدمة للمجتمع الإسلامي الجديد وتهديدا لمفهوم "الجماعة" الذي كان فاتحة منجزات السياسة النبوية وفاتحة سياسة أبي بكر التي صممها منذ اليوم الذي بويع فيه بالخلافة.

وفي تقرير أبي بكر لقتال المرتدين تتضح لنا شجاعته وشدة العزم وقوة الإرادة والتصميم ليحافظ على استمرارية وجود مفاهيم الأخوة والتسامح والتعاون والتضامن والوحدة على جميع مستويات الأمة الإسلامية.

²⁷ الدكتور يعقوب محمد إلبليحي: مبدأ الشورى في الإسلام ص186، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، دون سنة الطبع.

²⁸ بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انفسح المجال أمام للنافتين وأعداء قريش من العرب لإظهار ما كانوا يخفونه سابقا من نوايا انفصالية ونزعات. وظهرت مظاهر الصدام العنيف بين النظامين القبلي والإسلامي في الحركة المعروفة بالردة. وقد زعم هؤلاء أن الإسلام توفي بوفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يرغبوا في الاعتراف بأن بكر خليفة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، واعتقدوا أن نظام الخلافة يدعم نفوذ قريش ويجعل سلطان المدينة وراثيا. ولأجل ذلك خلع عدد كبير من قبائل العرب في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية سلطان المدينة وطرد عمال الصدقات مستهدفين من وراء ذلك التحلص من الزكاة.

لم يتردد أبو بكر لحظة في مواجهة المرتدين مواجهة شديدة وعنيفة، فوزع العوث وعقد الألوية لأحد عشر أميرا: (1) خالد بن الوليد (سيف الله) (ت21هـ/641م) (2) عكرمة بن أبي جهل (ت13هـ/634م) (3) المهاجر بن أبي أمية (ت12هـ/633م) (4) خالد بن سعيد بن العاص (ت14هـ/635م) (5) عمرو بن العاص (ت43هـ/663م) (6) حذيفة بن عاص الغلفاني (ت36هـ/656م) (7) عرفة بن هزيمة (ت20هـ/640م) (8) شرحبيل بن حسنة (ت18هـ/639م) (9) طريف بن حاحو (ت18هـ/639م) (10) سويد بن مقرن (ت21هـ/641م) (11) العلاء بن الحضرمي (ت21هـ/641م) (أنظر: تاريخ الرسل والملوك ج3 ص249 وما بعدها، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج4 ص73-86، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي: كتاب الردة ص88 وما بعدها، تحقيق الدكتور محمود عبد الله أبو الخير، دار الفرقان، عمان، الأردن، دون سنة الطبع).

ويروى لنا أن الجدل قد أثير بين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في أمر مانعي الزكاة، فقد أشار عمر في مجالس الشورى على أبي بكر بعدم قتالهم ولكن أبا بكر ألح على القتال وقال لعمر قولته المشهورة: "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه".

فقال له عمر: "كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ومن قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله".

فقال أبو بكر دون تردد: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال... قال عمر: والله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق." ²⁹

ومن الواضح أن ردة القبائل هذه أخطر ما واجه الإسلام ونظمه وعقيدته في مطلع عهد الخلافة. وكان نجاح أبي بكر في قمع هذه الحركة، التي كان هدفها تدمير الدولة الإسلامية والمبادئ التي قامت عليها، نجاحا في تفشيل طموح القبائل للعودة إلى أيامها السابقة وصراعتها التقليدية. وفي المقابل كان ذلك انتصارا للعقيدة وتكريسا لقيمتها الإنسانية، تلك التي شكلت أحد أهم الحوافز لاندفاع المسلمين بكل ثقة وراء حدود شبه الجزيرة، وقد تحرروا من قيود العصبية، التي أهدرت، ربما إلى حين، مع الهيار ثورة القبائل. ³⁰

²⁹ أنظر هذا الحوار في البداية والنهاية ج6 ص315، وكتاب الردة ص85.

³⁰ الدكتور إبراهيم بيضون: تكون الانجاعات السياسية في الإسلام الأول ص33، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.

لما حضرت الوفاة أبا بكر رضي الله تعالى عنه سنة 13هـ/634م استخلف عمر بن الخطاب ثقة منه بأنه أقدر المسلمين على متابعة سياسته، ولا سبيل إلى متابعة هذه السياسة إلا أن يأخذ الأمر بالعزم. وفي ذلك يقول أبو بكر: "اللهم أمرت عليهم خير أهلك".³¹

4) عمر بن الخطاب والدولة الإسلامية

قد وجد عمر بن الخطاب نفسه أمام ظروف مستحجة وقضايا شائكة تتطلب مواجهتها جرأة ومجاهمة، لا سيما في إزاء حالات خاصة ليست لها سابقة في العهد الأول من الإسلام. وكان عمر بعدله وفراسته وعبقريته وهيبته يتخذ مبادرات تشريعية بغية معالجة المواقف الطارئة التي واجهت الدولة في ذلك الحين بحيث أنه ينسب إليه تطوير وتنظيم عدد من وسائل السياسة. على أن جوهر سياسة عمر لم يكن شيئاً جديداً، وإنما كان متابعاً لجوهر سياسة أبي بكر وتطبيقاً للمبادئ التي صممها النبي صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن الفروع المستحدثة في وجه الظروف والوقائع الجديدة. وعليه، كانت السياسة بالنسبة لعمر عبارة عن مجال تستخدم أعراضه في خدمة مشروع التبشير ونشر الدين، ومن ثم ظلت السياسة عنده وسيلة لغاية لا غاية في ذاتها.³²

لقد عرف عمر الناس قواعد سياسته في خطبته الأولى، بعد ما تمت بيعته، حيث قال: "أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم، ولو لا أبي كرهت أن أورد أمر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقلدت أمركم... إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد

³¹ الكامل في التاريخ ج 2 ص 292.

³² ونذكر على سبيل المثال فتوحات الشام وفارس ومصر التي ألزمت دراسة ظروف جديدة ووضع أنظمة جديدة للدولة. ومن الأمور الأولى التي عملها عمر اقتباس نظام الديوان من الفرس لضبط دخل الدولة ونفقاتها، ثم حفظ ما يتعلق بمقوى السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال. فبدأ عمر بإنشاء ديوان الجند المعروف بديوان العطاء. وأنشأ عمر أيضاً بيتاً للمال قصد به حفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند. وقد تطور نظام بيت المال في عصر عمر وتعددت موارده، وكانت هذه الموارد تعتمد أساساً على الزكاة أو الصدقات التي تفرض على المسلمين وتعتبر وصيداً مالياً لجماعة المسلمين للإنتفاع منه على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفي الرقاب وفي سبيل الله. وعندما تدفقت الأموال على المسلمين بدت الضرورة للتغيرات التدريجية في نظام العملات. وكذلك ترك عمر بن الخطاب أثراً بارزاً في التنظيمات العسكرية والإدارية. (أنظر: تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 613، الأحكام السلطانية للفرهاني ص 237، كتاب الخراج ص 144، الأحكام السلطانية للماوردني ص 337)

صاحبي، فوالله لا يحضرنى شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فألوا فيه عن الجزء والأمانة، ولن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولن أساءوا لأنكلن بهم" ³³...

وحينما نستعرض تاريخ خلافة عمر يتبين لنا أنه كان يسعى طوال خلافته إلى تحقيق مفاهيم الأخوة والوحدة والتناسق المادي والمعنوي بين أطراف المجتمع الإسلامي. وفي طريق تحقيق ذلك برز تشدده في المحافظة على أصحاب الرأي وأهل المشورة وضنه بهم على العمالة والوظائف العامة في أطراف الدولة تزيها لأقذارهم وانتفاعا برأيهم. ³⁴ كما كان يهتم كل الاهتمام بأحوال رعيته، وكان يلقي عماله وأهل أقاليمه في الموسم من كل عام، ويسمع منهم في أمر الرعية، ويسمع من الرعية في أمر العمال، وقد جعل هذا نظاما مقررًا، وكان يحج بالناس طول خلافته ليلقي المسلمين في موسمهم، لا نستثنى من ذلك إلا العام الأول لخلافته. ولم يكن عمر رحمه الله تعالى يكتفي بهذا الاجتماع الموسمي وإنما كان يستقصي أمور الناس ما وسعه الاستقصاء. ثم كان رحمه الله تعالى يفكر في آخر أيامه في زيارات تفتيشية للأقاليم، فكان يتحدث بأن لو عاش لتنقل فأقام في كل مصر شهرين ليرى بنفسه كيف يعمل الولاة وكيف رضا الرعية عما يعملون، ولكن موته أعجله عن هذا كله. ³⁵

ولما أحس عمر أن أجله قد اقترب لم يستخلف شخصًا بعينه، واقتدى في ذلك بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذلك لم يترك المسلمين دون أن يشير عليهم وينصح لهم،

³³ محمد ابن سعد: الطبقات الكبرى ج 1 ص 196 و 197، دار صادر، بيروت، 1958م.

³⁴ أنظر عباس محمود عقاد: عقرية عمر ص 127، طبعة عام 1964م، دون مكان الطبعة.

ومن الصحابة الأعلام الذين اتخذه عمر بن الخطاب عمالا له سعد بن أبي وقاص (ت 55هـ/674م) عامله على الكوفة، أبو عبيدة بن الجراح (ت 18هـ/639م) عامله على الشام، المغيرة بن شعبة (ت 50هـ/670م) عامله على البصرة، زيد بن ثابت (ت 45هـ/665م) عامله على المدينة، أبو موسى الأشعري (ت 44هـ/664م) عامله على البصرة، عمار بن ياسر (ت 37هـ/657م) عامله على الكوفة، عبد الله بن مسعود (ت 32هـ/652م) كان إليه بيت المال، عمرو بن العاص عامله على مصر، معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام وغيرهم. (أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 597، 623 ج 4 ص 39، 95، 145، 241)

³⁵ أنظر عبد الحفي بن عبد الكبير الكنان: التراتيب الإدارية ج 1 ص 267، دار الكتاب العربي، بيروت، دون سنة الطبعة، وتاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 256 و ج 5 ص 19 و 20، والطبقات الكبرى ج 3 ص 293، وأحمد بن يعقوب بن جعفر اليقسوبي: تساريخ اليقوبي ج 2 ص 159، دار بيروت، بيروت، 1980م.

واقتمدى في ذلك بأبي بكر الصديق، فاختار أصحاب الشورى من رضا المسلمين عنهم وثقتهم بهم، ثم ترك لهم أن يختاروا من بينهم خليفة. لم يهتم عمر بشخص سيقع الاختيار عليه كما لم يهتم بأحوال ذلك الشخص الاجتماعية، بل اهتم بقضايا الأمة، ومهما يكن الخليفة بعده فهو يوصيه بالإلحاح على معالجة تلك القضايا على وفق القواعد التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلم واتبعه في ذلك أبو بكر الصديق وعمر نفسه. ويقول في وصيته الأخيرة:

"أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله، وأوصيه بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم وكرامتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبوعوا الدار والإيمان من قبل أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم، وأوصيه بأهل الأمصار فإنهم رداً للإسلام وغيظ العدو وحياة المال، أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم، وأوصيه بالأعراب فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم".³⁶

5) عثمان بن عفان والدولة الإسلامية

وتولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الخلافة التي هي الآن أصعب خلافة تولها خليفة قط في صدر الإسلام. وقد كانت ردة المرتدين في أول خلافة أبي بكر محنة شديدة فحض لها المسلمون جميعاً متساندين متأزرين، فابتلى عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه الخلاف في الداخل والتغير في الدواعي النفسية وهو أخطر المصائب جميعاً في خلافته.³⁷

³⁶ كتاب الخراج ص 89.

³⁷ عباس عمود العقاد: عثمان بن عفان ص 130، المكتبة العصرية، بيروت، دون سنة الطبع.

كانت هيبة وشدة عمر تملئان الجزيرة العربية وما حولها، والذين لم يقتنعوا بالإسلام عن إيمان راسخ به وفهم عميق لأصوله، والذين ظلوا مسلمين سطحيين ينافقون الآخرين في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خوفا من الردع، فإنهم لاحظوا في مقتل عمر وفي سياسة عثمان اللينة والتساهلية فرصة ذهبية ليتجرعوا على إظهار عصبياتهم القبلية التي جهد وتشدد الرسول صلى الله عليه وسلم في إذابتها وظل أبو بكر وعمر يستنان بذات الأسلوب.

أما عثمان فإنه كان عليه أن يسلك أحد مسلكين لا ثالث لهما: فإما أن يشتد كما اشتد عمر ولا سيما في الأمور المتعلقة بقريش ويظهر لعامتهم ما كان يظهر لها عمر من مراقبة والتقييد، ويقف فيناهم وكهولهم كما كان يقفهم عمر عند حدود لا يتعدونها، ويجعل أمور الحكم والولاية كما كان يجعلها عمر شائعة بين المسلمين، لا ينهض بها منهم إلا القادرون على احتمال أعبائها، وإما أن يلين في كل هذه الأمور تحت ضغط التطورات السياسية والاجتماعية الجديدة. وسرى أن عثمان قد اختار الثاني.³⁸

وبعد دراستنا المتفحصية لسياسة عثمان نتمكن من تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: سياسة وافق فيها سياسة أبي بكر وعمر.

القسم الثاني: سياسة خالف فيها سياسة أبي بكر وعمر.

أما سياسة عثمان التي وافق فيها أبا بكر وعمر فاستطيع أن أقول أنها سياسة تتعلق بالشؤون الدينية المحضة. ونستنبط جوهر تلك السياسة من الكتب التي أصدرها عثمان إلى الأقاليم والتي تركز على تطبيق الدين من قبل الولاة والناس أجمعين. ومن الجوانب التي

³⁸ طه حسين: الفتنة الكبرى - عثمان ص 83 و 84، دار المعارف، مصر، دون سنة الطبعة.

يشير عثمان إليها: عدل، أمانة، وفاء، زهد، قراءة القرآن الكريم وغيرها. ومن تلك الكتب ما أرسله عثمان إلى عماله³⁹ وعماله على الخراج⁴⁰ وإلى عامة الناس⁴¹.

وبذلك يتبين لنا أن الخليفة عثمان كان يسوس الرعية في مجالات يمكن إدخال عناصر دينية خالصة فيها بسياسة مستخرجة من كتاب الله تعالى وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من بعده. وهو لم يكن أقل محافظة منهما على السنة الموروثة كما لم يكن أقل تحييا منهما للابتداع والتكلف. ونرى تلميحات هذا النوع من السياسة في خطبته الأولى للناس بعد أن بايعه أهل الشورى.⁴²

أما سياسة عثمان التي خالف فيها أبا بكر وعمر فيمكننا تلخيصها في أنه لم يوافقهما في سياسته نحو كبار الصحابة، وفي سياسته المالية، كما خالفهما أحيانا في طرق اختيار العمال فقام بعزل الذين كانوا يتولون الأمصار الإسلامية قبله وولى آخرين من بني أعمامه وأقربائه⁴³، ومنهم من أساءوا السيرة وتجاوزوا الحدود⁴⁴، مما أدى إلى إنكار بعض الناس ذلك على عثمان.

³⁹ تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 244.

⁴⁰ نفس المرجع ج 4 ص 244.

⁴¹ نفس المرجع ج 4 ص 244.

⁴² نفس المرجع ج 4 ص 243.

⁴³ قال في ذلك أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت 282هـ/895م): "... واستخلف عثمان بن عفان فعزل عمار بن ياسر عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان أبا عثمان لأمه، أمهما أروى بنت أم حكيم بن عبد المطلب بن هاشم. وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولاهما عبد الله بن عامر بن كريز، وكان ابن خال عثمان، وكان حدث السن. واستعمل عمرو بن العاص على حرب مصر، واستعمل عبد الله بن أبي سرح على خراجها وكان أخاه من الرضاعة، ثم عزل عمرو بن العاص وجمع الحرب والخراج لعبد الله بن أبي سرح." (أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ص 139، تحقيق عبد المنعم عاسمر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، الإدارة العامة للثقافة، مصر، دون سنة الطبعة)

⁴⁴ ومن كان أكثرهم فسادا هو الوليد بن عقبة أمير عثمان على الكوفة. وقد صلى يوما مع الناس صلاة الصبح وهو سكران فصلسى أربع ركعات ثم قال: "إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم". وكان عثمان يعطل ويوخر إقامة الحد عليه. ويزعم أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة (ت 276هـ/889م) أن عثمان ترك المهاجرين والأنصار ولم يستعملهم كثيرا ولم يستشرهم في أمور شئ واستغنى برأيه عن رأيهم... (أنظر الإمامة والسياسة ج 1 ص 50، و أبو الحسن علي بن الحسين بن علي للسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 343 - 347، تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، 1983م، وتاريخ يعقوب بن ج 2 ص 165 و 166، وأسر الفلاح بن العماد الخبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج 1 ص 36، دار الفكر، بيروت، 1988م، وتاريخ الخلفاء ص 157، وتاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 421)

وقد كان أبو بكر وعمر بمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويجذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من التراع ما يشجر بين طلابها.⁴⁵ ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته بعده: "... احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم نفسه، وأن منهم حيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله".⁴⁶

ونقول بلغة العصر أن أبا بكر وعمر إنما أمسكا هذه الطبقة الممتازة في المدينة ضنا بما وضنا بالمسلمين على ما تسميه اليوم باستغلال النفوذ.⁴⁷ فقد استقامت أمور المسلمين وأمور هذه الطبقة نفسها مع إمسакها في المدينة وتوقيفها عند حدود معينة من الحركة والاضطراب.

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز وسمح لهم بالانطلاق إلى الأقاليم والاستقرار فيها. وقد تماشت هذه الخطوة السياسية مع خطوة أخرى وهي مخالفة عثمان لأبي بكر وعمر في سياسته المالية، وبالتالي نقول تمهدت الأرض لظهور ما كان يحذرُه أبو بكر وعمر منه.

إن كرم عثمان وجوده وسماحته ولينه قد أجزته على أن يوسع على الناس ويزيد في إعطائهم. ولم يشمل فضل هذه السياسة طبقة معينة من المجتمع الإسلامي فحسب، بل ذاقت لذلها كافة طبقاته، إلا أنه لم يتحرج في العطاء المتوفر والمتكرر للصحابة الكرام، مما

⁴⁵ أنظر القاضي أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم ص76، مكة المكرمة، 1374هـ. أبو العرب عماد بن أحمد بن محمد بن ميم بن ميم التميمي برواية ابنه أبي جعفر أحمد بن محمد التميمي: كتاب المحن ص398، تحقيق الدكتور عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الطبعة الأولى، 1984م، ومحمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ج2 ص135 و 141، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1968م.

⁴⁶ عباس محمود العقاد: عقيرة الإمام علي ص43، دار الهلال، دون سنة الطبعة.

⁴⁷ الفتنة الكبرى - عثمان ص41.

سبب في النهاية، كما يروي المسعودي⁴⁸ (ت346هـ/957م)، افتنائهم بالضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربي عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم. وخلف زيد بن ثابت⁴⁹ (ت45هـ/665م) من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع...⁵⁰

إن ما فعله عثمان لم يفعله سياسة بل فعله إيمانا بالصواب في هذه الزيادة. وقد كان هو في عهد عمر بن الخطاب أول من قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذي حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار.⁵¹ وهو ما استطاع ضد طبيعته السخية من جهة، ووعيه الكامل من مرتبة الصحابة التي يستحقونها من جهة أخرى، وهم أئمة الإسلام وبناء الدولة وأصحاب البلاء الحسن أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وقد احتملو من الشدة والحرمات شيئا كثيرا. وقد صدق الله تعالى وعده وأكثر الخير، فأبي الناس أحق من هؤلاء أن يستمتعوا بشيء من هذا الخير الكثير؟! وليس في شيء من ذلك مأثم، وإنما هو الخير والبر والمعروف.⁵²

وقال الله تعالى عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في القرآن الكريم: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

⁴⁸ مورخ، رحالة، بحاث، من أهل بغداد. (الأعلام ج4 ص277)

⁴⁹ من أكابر الصحابة، كاتب الرعي. كان عمر وعثمان يستخلفانه على المدينة، وكان ابن عباس يأتيه إلى بيته للعلم، ويقول العلي.

يوتي ولا يأتي. (شذرات الذهب ج1 ص54)

⁵⁰ أنظر مروج الذهب ج2 ص241 و242.

⁵¹ عثمان بن عفان ص151 و152.

⁵² أنظر المقدمة ص204، والفتنة الكبرى - عثمان ص77.

كزرع أخرج شطئه فنازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما⁵³ وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه".⁵⁴

ومن المآخذ التي أخذها الناس على عثمان أنه استعمل أقرباءه وأهل بيته في السنوات الست الأخيرة من خلافته،⁵⁵ وكان لذلك بلا شك أكبر الأثر في تحريك عوامل السخط على عثمان رضي الله تعالى عنه في الأمصار الإسلامية العديدة، وتنمية روح العداوة لسياسته وشخصيته في قلوب بعض المسلمين.

ولعثمان خطاب يرد فيه على تهجم أهل الأمصار عليه ألقاه أمام الصحابة في المسجد: "وقالوا: استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا مجتمعا محتتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم. قالوا: اللهم نعم، يعييون للناس ما لا يفسرون... وقالوا اني أحب أهل بيتي وأعطيتهم، فأما حيي فإنه لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم. وأما اعطائهم فاني إنما أعطيت من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس".⁵⁶

لقد أصبح بديهيا أن الأمة الإسلامية بدأت تدخل مرحلة لم تعرف مثلها في العهود السابقة حيث بدأ يتزاحم كثير من الناس على الغنى والسلطة، بيد أن بعض سياسات عثمان سمحت لهم بالانتشار في الأرض والاتصال بالناس بحيث أصبح بعضهم رؤساء أحزاب أخذت تتنافس في ولاية أمور المسلمين، وشغل بالهم الاستعداد لانتهاز فرصة

⁵³ سورة الفتح 29.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك بن أنس بتكفر الروافض الذين يعضون الصحابة. قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة فهو كافر. (مختصر تفسير ابن كثير ج3 ص356)

⁵⁴ مختصر صحيح مسلم ص465.

⁵⁵ سنرى في فصلنا القادم "الأمويون والفصل بين العلماء والحكام" أن أقرباء عثمان وأهل بيته بدؤوا أن يقتربوا من شؤون الدولة ويتولوا بعضها حتى في عصور قبل عثمان رضي الله تعالى عنه.

⁵⁶ تاريخ الرسل والملوك ج4 ص348. وأنظر أيضا العواصم من القواصم ص85-99.

قادمة ستمكثهم من تحقيق أحلامهم. وقد اتضح كل هذا بعد مقتل عثمان بن عفان وأثناء التوترات السياسية بين علي ومعاوية حين وضعت البنود لظهور أكبر وأشهر الفرق الإسلامية السياسية على صعيد المجتمع الإسلامي. كما لا يفوتنا دور بعض المنافقين والكافرين الذين أسلموا تظاهراً بغرض الكيد للإسلام وتقويض دعائمه من الداخل، وفي جبهة هؤلاء يقف عبد الله بن سبأ اليهودي الذي كان يشيع السوء عن عثمان وينادي بحق علي في الخلافة بما أنه خاتم الأوصياء إذ أن لكل نبي وصياً وهو وصي خاتم الأنبياء.⁵⁷

وفي هذه الظروف الشائكة جعلت الأرض خصيبة لوضع جذور المعارضة والتدمير ضد السلطة. وكثر المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من التزديد بالتهم المتبادلة، وإضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء. وأخذ الناس يتوافدون إلى الخليفة بالشكاوى يطلبون منه إصلاح الأوضاع.⁵⁸ إن بوادر الانفجار الشعبي والعسكري هذه اتخذت وسائل سلمية، وكانت مجملها مقاومة إيجابية، على أن اشتداد النقمة واتساع دائرة المعارضة ودور المنافقين والكافرين أدت إلى فتح المجال والتحول إلى الصراع بين أطراف متعددة ورغبات ومآرب متنوعة، مما أدى في النهاية إلى اغتيال الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.⁵⁹

6) علي بن أبي طالب وعصر الاضطرابات الداخلية

وبعد مقتل عثمان سنة 35هـ/655م كان لا بد من الخروج بحل سريع لهذه المحنة لتُعاد الأوضاع إلى مسارها الطبيعي. وقد تمثل هذا الحل في اختيار إمام سيقوم بتغييرات جذرية في سياسة الدولة الإدارية والاقتصادية والعسكرية، غير أن التصدي لرواسب النظام السابق

⁵⁷ الدولة الأموية ص 67-68.

⁵⁸ عن تفاصيل هذا الوضع أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 340-365.

⁵⁹ أنظر العواصم من القواصم ص 111-136.

كان يعني المجاهدة مع قوى نافذة وصلبة، بلغت شأها على حساب الفراغ المركزي الذي أصاب الخلافة زمن المحنة.⁶⁰

لقد ظهرت في المجتمع الإسلامي في عهد عثمان نواة اتجاهين متقابلين أو عالمين متنافسين، والتي تطورت بعد قتله إلى الصراع بين نظامين: نظام ينتمي إلى الخلافة الراشدة المحضة كما تمثل في علي بن أبي طالب، ونظام الدولة الجديد الشاذ نسبيا عن النظام الأول، كما تمثل في معاوية بن أبي سفيان.

وتولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه منصب الخليفة وكان دوره دور المنقذ للخلافة الراشدة التي صارت على شفا حفرة من الانقضاء والتحول إلى ملك حيث يخضع الدين والعقيدة لمنطق السياسة والدولة. ولذا نراه يتخذ ويتبع من اليوم الأول من خلافته قاعدة رئيسية لسياسته وهي: الالتزام بمفهوم الشمولية وعدم التجزئة في كل مجالات السياسة، والإلحاح الصلب في تحقيق ذلك. وفي ضوء هذا الموقف المبدئي صدر الأمر بعزل الولاة والعمال الذين تجاوزوا حدودا فيما يتعلق بالدين وسياسة الدولة على حد سواء.⁶¹

واتبع علي رضي الله عنه من اللحظة الأولى أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، فأخذ في تجنيد قوري الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها، كما ود أن يوجه رعيته إلى السيرة التي شهدها المسلمون أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر. ولكنه رأى أمامه جيلا جديدا لم ينشط كثيرا لسياسته الإصلاحية ولم يطمئن إليها، ومن ثم صعبت عليه إعادة التوازن المطلوب بين الحاكم والمحكوم الذي أوشك أن يضيع في آخر عهد عثمان.

أثناء هذا الانقلاب النفسي كان علي ينظر في أمور أصحابه على ملاء منهم ولا يستبد من دونهم بشيء، وإنما يستشيرهم في كل شيء، إلا أنهم كانوا كثيرا يأبون آرائه

⁶⁰ تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول ص 120.

⁶¹ أنظر تاريخ يعقوب ج 2 ص 179 و 180، و تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 442-444، والكمال في التاريخ ج 3 ص 103-104.

ويعتنون عليه ويجرونه إلى أن يتمسك برأيهم ويتنازل عن رأيه، وكان ذلك يغيرهم به ويطمعهم فيه. وفهم علي رضي الله عنه أن ظروف الاتجاه القبلي ومنتصره قد تمت نحواً وأخذت تتجسد في حزب معاوية، كما تسربت بعض بواعته إلى معسكره ونفوس أصحابه لما خرج الخوارج وانفصموا عن جيشه بعد الاتفاق على صيغة التحكيم⁶². وهذا أحد أنصار علي يصفهم بأنهم "أعاريب بكر وتميم"⁶³. وتدل بعض الروايات على أنهم كانوا من عدة قبائل، ويظهر أن بعضهم هدد علياً عند إجبارهم إياه لقبول التحكيم وقالوا له: "يا علي، أحب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا (عثمان) ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبههم"⁶⁴.

⁶² أثناء معركة صفين بين جيش علي وجيش معاوية بعد ما رأى معاوية أنه سيغلب استشار عمرو بن العاص فيما يحدث وماذا أن يعمل فأشار إليه برفع المصاحف وطلب التحكيم إلى كتاب الله عز وجل. وحاول علي أن يكف أصحابه عن قبول هذه الفكرة علماً أن معاوية لا يقصد ما ما يعبر عنه بلسانه. ولكن بعض أصحاب علي (وهم الخوارج فيما بعد) أجروه على القبول، وهم الذين كفروه بعد ذلك لأنه قبل التحكيم ولا حكم إلا لله. وبتاتا اتفق الجيشان على أن يحكموا حكيم. فاختار أهل الشام أي جيش معاوية عمرو بن العاص، واختلف أهل العراق أي جيش علي فيمن سيمنهم، فأراد علي أن يرسل عبد الله بن عباس (ت68هـ/687م) ولكن الذين أجروه على قبول التحكيم اقترحوا له أبا موسى الأشعري وأجروه على إرساله. واتفق الحكمان على عزل علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين. فلما فعل ذلك أبو موسى الأشعري قام عمرو بن العاص فعزل علياً وعين وأثبت معاوية حليفة للمسلمين. وعندئذ غضب الذين أجروا علياً على التحكيم وأخذوا يصرخون أن لا حكم إلا لله، فكفروا علياً وصرخوا عنه مهددين له ولمن شارك في التحكيم. وكان ذلك استهلال فتنة حذيدة ونشأة فرقة الخوارج المتشددين الضالين. وقد كان علي بن أبي طالب أحد الضحايا الأولى لهذه الفتنة والانشقاق في الأمة الإسلامية. (أنظر الإمامة والسياسة ج1 ص170 وما بعدها، البداية والنهاية ج7 ص284-294، تاريخ الرسل والملوك ج5 ص48-70)

- نلاحظ بسهولة أن معاوية استشار عمرو بن العاص في أمر رفع المصاحف، وذلك لأجل قابليته العظيمة للدعاء والاحتفال. وهذه الحالة لم تكن وحيدة حيث لجأ معاوية إلى عمرو بن العاص مطالباً منه حلاً لمشكلته قد طرحه أو منحرجه من مأزق سياسي وجد نفسه فيه. ويروى أن معاوية أحضر يوماً عمرو إلى بيته ليستشيره في بعض الأمور. وقد كان عمرو يومئذ مقيماً في ضيعة له من حيز فلسطين واعتزل الفتنة ولم يرغب في الاشتراك فيها. فلما جاء قال له معاوية: "أبا عبد الله، طرقتنا في هذه الأيام ثلاثة أمور ليس فيسها ورد ولا صدر. أما أولهن فإن محمد بن أبي حذيفة كسر السحن وهرب نحو مصر فيمن كان معه من أصحابه، وهو من أعدى الناس لنا. وأما الثانية: فإن قيصر الروم قد جمع الجنود ليخرج إلينا فيحاربنا على الشام. وأما الثالثة فإن حبرياً قدم رسولاً لعلني بن أبي طالب يدعوننا إلى البيعة له أو إبدان بحرب".

فقال عمرو بن العاص: "أما ابن أبي حذيفة فما يملك من حروجه من سجنه في أصحابه، فأرسل في طلبه الخيل، فإن قدرت عليه قدرت وإن لم تقدر عليه لم يضرك. وأما قيصر فآكبه إليه تعلمه أنك ترد عليه جميع من في يدهك من أسارى الروم، وتسألهم الموائد والمصاحبة تجده سريعاً إلى ذلك راضياً بالعمق منك. وأما علي بن أبي طالب فإن المسلمين لا يساوون بينك وبينه". قال معاوية: "إنسه ما لأ علي قتل عثمان وأظهر الفتنة وفرق الجماعة". قال عمرو: "إنه وإن كان كذلك فليست لك مثل سابقته وقرابته، ولكن ما لي إن شايئتك على أمرك حتى تنال ما تريد، واجعل في مصر طعمة ما دامت لك ولاية". (الأخبار الطوال ص157-158)

⁶³ تاريخ الرسل والملوك ج5 ص66.

⁶⁴ عز الدين أبو حامد ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (الجامع لخطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) ج1 ص223، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، دون سنة الطبعة.

والحقيقة أن معاوية لم يتعامل بهذا الأسلوب مع أصحابه، فإنه لم يكن يستشيرهم كثيرا وإنما كان له المشيرون من خاصته. فكان إذا أمر أصحابه شيئا أطاعوه دون معارضة وتردد، ثم كان يحتفظ بأسراره وخططه لا يطلع عليها إلا قلة قليلة، في حين أن كل أمور علي كانت تدبر وتشر، ولا يخفي على أصحابه شيئا حتى ولو كان في غاية الخطورة والأهمية. ودلت هذه التوترات السياسية بلا شك على زوال فترة واستهلال فترة جديدة متمتازة بخصائص لم يسبق لها مثال.⁶⁵

ولا شك أن كل ما حدث بين علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما وكل تلميحات الأحداث الآتية دلت على ضعف سلطان الدين على نفوس الناس وتغلب سلطان الدنيا عليها.⁶⁶ لقد أدرك علي خطورة هذا التغلب وآمن كل الإيمان أن القعود عن محاربة قواته حين ومعصية. لذلك قال لأصحابه حين ألقى خطبته يحث فيها على قتال معاوية: "والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأررز الأمر إليها. انفضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم..."⁶⁷ وقد ذكر في كتابه إلى معاوية: "فادخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، فإن أحب الأمور فيك وفيمن قبلك العافية. فإن قبلتها وإلا فأذن بحرب، وقد أكثرت في قتل عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على ما في كتاب الله وسنة نبيه، فأما تلك التي تريدها فإنما هي خدعة الصبي عن الرضا..."⁶⁸

⁶⁵ لقد استعرجت هذه الاعتقادات من المصادر الآتية: أبو حامد محمد الغزالي: سر العالمين ص14، تحقيق محمد مصطفى أبو العلاء مكتبة الجندي، مصر، دون سنة الطبع. مروج الذهب ج2 ص363، 384، وج3 ص47-61. تاريخ اليعقوبي ج2 ص195 وما بعدها. الكامل في التاريخ ج3 ص201-205، وج3 ص375-377. البداية والنهاية ج7 ص264 وما بعدها. محمد عبده: شرح لم البلاغة (خطب وحكم ورسائل الإمام علي بن أبي طالب) ج2 ص100 و101 والجزء الثالث بأكمله، مؤسسة الأعلمي، بيروت، دون سنة الطبع. الإمامة والسياسة ج1 ص147 وما بعدها.

⁶⁶ See: Jurji Zaydan: History of Islamic Civilization: page 57-63, Translation by D.S. Margoliouth D.

LITT, Darf Publishers Limited, London 1987.

⁶⁷ محمد رضا: الإمام علي بن أبي طالب ص78، دار الكتب العلمية، بيروت، دون سنة الطبع.

⁶⁸ نفس المرجع ص150 و151.

وحدثت موقعة الجمل⁶⁹ سنة 36هـ/656م مقدمة للصراع الحتمي بين علي ومعاوية في صيفين⁷⁰ سنة 37هـ/657م، وفي نفس الوقت بداية المواجهة والصراع بين الفكرتين المختلفتين. وكان الانتصار النهائي انتصار معاوية وبالتالي انتصار الاتجاه والسياسة التي دعا إليها. وكانت هزيمة علي هزيمة السياسة التي كان يدافع عنها، أي السياسة الراشدة. بيد أن الناظر إلى ما حدث يمكن أن يرى أن الحكم الراشدي في الحقيقة لم يكن بوسع أن يستمر أكثر مما استمر، لأن المجتمع الجديد بجذبه الجديده وبعقلية الجديدة لم يكن مؤهلاً للاستفادة من ذلك الحكم والانطباع به، فكان لا بد من أن يحل محله حكم جديد بعقلية تشابه عقلية الجيل الجديد واتجاهه ومفهومه للحياة.⁷¹ والدولة الجديدة، أي الدولة الأموية، كانت وظلت دولة إسلامية تستمد قوتها الروحية والفكرية واتجاهاتها ودستورها من الإسلام، غير أن الإسلام وعقيدته قد أخضعت لمنطق السياسة والدولة.

⁶⁹ هي معركة بين جيش علي بن أبي طالب من جانب وحيش طلحة والزبير من جانب آخر. وقد قتل في هذه المعركة طلحة والزبير وانتصر جيش علي رضي الله تعالى عنه. (أنظر الإمامة والسياسة ج1 ص113-118، وتاريخ الرسل والملوك ج4 ص508-532)

⁷⁰ موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي. (معجم البلدان ج3 ص414)

⁷¹ الدولة الأموية ص 133.